مراكش العربية تستصرخ

للأستاذ حسن أحمد الخطيب

مَنْ كان يظن — في أثناء الحرب العالمية الثانية — أن هؤلاء الغربيين الذين ملأوا الدنيا صياحاً، ورفعوا عقائرهم بالحرية والعدالة والمساواة، وبحقوق الأفراد والأمم؟ مَن كان يظن أنهم يجيئون في أعقاب حرب ضروس وهيجاء طاحنة، قد ضربتْ وشبّ ضرامها، وأتت على الملايين من البشر قتلا وأسراً وتشريداً، فلا يكون لهم منها عبرة ولا مزدجر، ولا تؤثر فيهم الثلات، فيسلطون جبريّتهم على الأمم الضعيفة التي منيت باستعمارهم وابتليت بدائهم، ويحكمونها بما استطاعوا من قوة الباطل وأساليب الظلم التي لا تعرف الرحمة الإنسانية، ولا الشفقة التي يجب أن تكون بين بني الإنسان!!

بالأمس رأينا كيف بطش الفرنسيون بأهل الجزائر في شهر مايو الماضي، فضربوا البلاد ببوارجهم الحربية وطياراتهم المدمرة ونكلوا بالأحرار من أبنائها

واليوم نقرأ في إحدى الصحف اليومية[1] أن الحكومة الإسبانية تنهج نهج الفرنسيين وتسير على غرارهم في التنكيل بمراكش التي أصيبت بالاستعمار الإسباني، كأنها سياسة مرقومة وخطة مرسومة من المستعمرين لا محيد لهم عنها ولا محيص، وهو أن يسلطوا قوتهم الغاشمة على من يقع في حبائلهم من الأمم الضعيفة حتى تُخبِتَ وتخشع وتُضرب عليها الذلة والمسكنة، فلا يرتفع لها صوت بحق، ولا تجأر بدفع ظلم، فأين مبادئ الحرية والعدالة التي أعلنها أقطاب الأمم المنتصرة؟ وأين الوصايا الإنجيلية التي نشروها في الخافقين؟ بل أين الحريات الأربع التي بشروا بها العالم الجديد وزعموا أنها تكفل تحقيق عهد يسوده السلام والأمن والحرية والعدل؟!

إن الحكومة الإسبانية قد فتحت باب الهجرة على مصراعيه للاسبانيين يتدفقون منه على مراكش العربية الإسلامية، ومنحتهم من وسائل التيسير والإغداق ما يمكن لهم في أرضها، ويجعلهم يتحكمون في رقاب أهلها، وما يُصيّرهم بعد قليل من الزمن أكثر عدداً من أبناء البلاد، وأقوى عدة وأكثر مالا، وأعز نفراً، وبذا يتسنى لهم جعلها جزءاً متمما لإسبانيا، وإقليماً من أقاليمها، كما تحاول ذلك فرنسا في الجزائر، وليس أقوى دليلا ولا أصدق شاهداً على ذلك من أن الإسبانيين قبل الحرب الأهلية لم تكن نسبتهم في مراكش تعدو ٧٪ من سكانها، فأصبحوا بعد سبع سنين قد ذرّفوا على ثلث أهلها: سياسة ما أشبهها بسياسة الصهيونيين في فلسطين، يقصدون من ورائها التغلب على أبناء البلاد بما يكون لهم من كثرة العدد وقوة الحكم والاستعمار، ويقصدون إلى قهر العرب والمسلمين بحملهم على التجنس بالجنسية الإسبانية مكرهين، أو بطردهم من البلاد صاغرين!

ولكي ينفذ الإسبان تلك السياسة الباطشة، ويحققوا مآربهم الظالمة، ويسيروا في سبيل الإثم والعدوان بنجوة من الرقباء، ومنأى من الأحرار الذين يغضبون للحق، ويثورون على الظلم — أحاطوا بالمراكشيين، وأخذوهم بأساليب العنف والاستبداد، وسلطوا عليهم وسائل الإخافة، واسترهبوهم وجاءوا بأمر عظيم، فاعتقلوا الزعماء في بيوتهم، ونفوا الأحرار إلى بلاد غير بلادهم، ثم عمدوا إلى الصحف فعقلوا ألسنتها، وحطموا أقلامها، وقضوا على حريتها، ثم أمعنوا وعتوا عتواً كبيراً: فألغوا كثيراً من الوظائف الشرعية، ومنعوا الاجتماعات والمحافل العامة، حتى المحاضرات العلمية ذادوا الشعب عنها وحالوا بينه وبين الاستماع إليها

ظلم عبقري، وجور ليس له نظير، لا يصدر إلا عن نفوس قد تجردت من نوازع الخير، وقلوب قد ران عليها ما اكتسبت من الإثم والعدوان، وحيل بينها وبين خلال البر والرحمة والإحسان

ألم يحدثكم التاريخ — معشر الإسبان — بأن أسلاف أولئك المراكشيين من العرب والمسلمين قد فتحوا بلادكم فأنقذوكم من ظلم الوندالين، وجور القوطيين، ثم أظلوكم بلواء العدل والرحمة ونشروا بينكم المبادئ السامية والعلوم النافعة، وكان شعارهم في حكمهم: «لأهل الذمة ما لنا وعليهم ما علينا»، فلم يستبيحوا

(١) المصري في ٢٠ أغسطس سنة ١٩٤٥